# بين زياد بن أبيه في خطبته "البتراء" والحجاج في خطبته "أنا ابن جلا"

د. عمر شرف الدين

في البدء أرى لزاما أن أنبه الى مسألة حط الخطابة العربية من الدراسات الأكاديمية التي تنشغل بها وحدها ، وتفردها بالبحث المستقل، وفي ذلك ظلم اى ظلم ! ، حيث ان الخطابة — بالأساس — فن عكاظي(١) ، سامق الشعر قامة وتداول أبطاله وفرسان الشعر القمة البيانية(٢).

---

(١) يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما علم بموت قس ابن ساعدة : كأني أنظر اليه — بسوق عكاظ — يخطب الناس على جمل أحمر وهو يقول : « أيها الناس ... » ، المعمرون والوصايا لأبي حاتم السجستاني ٢٥٠هـ — ٨٦٤م ، تحقيق عبد المنعم عامر ( دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦١ ) ، ص ٨٨ .

(٢) « زهير بن جناب الكلبي .. كان سيد قومه وخطيبهم وشاعرهم ووافدهم الى الملوك » المرجع السابق ، ص ٣١ .

— وعاش القلمس وهو أمية بن عوف دهرا طويلا ، وهو من حكماء العرب وكان جده الحارث بن كندة وهو الذي يقوم بفناء البيت ويخطب العرب ، وكانت العرب لا تصدر حتى يخطبها ويوصيها» نفسه ، ص١١٠

— وقال أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم من غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عدوهم وهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء

من هنا صح منى العزم على البحث فى هذا المجال ، آملا ألا يعدم الفن الخطابى العربى باحثين ضوحين يتناولون قضاياه تناولا علميا ، يكشفون جدارة وخطورة هذا الفن ، ويظهرون تأثيره فى أفراد المجتمع ، وخاصة على مستوى الاتصال الشفاهى(٣) .

ونقطة الدائرة فى بحثنا ، مقابلة بين خطبتين محددتين ، لخطيبين معينين ، ومن ثم فان البحث يأخذ بناحية من الموازنة والمقارنة ، مؤقتا — بالدرجة الأولى — على عنصر النص والاستنباط منه ، وهى ناحية مهمة ، يراها بعض الباحثين تمثل الدروس الأدبية الحقة(٤) .

اننى سأعرض نص كل خطبه ، وأنظر فى النصين عبر محاور رئيسة تكفل الاحاطة بمواد البحث ، دونما حشو أو تزيد ، ثم أنتهى الى استخلاص ما يمكن لى قدر ما تسمح به الطاقة .

---

=

واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا الى أعراض الناس — صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ، ولذلك قال الأول : « الشعر أدنى مروءة السرى وأسرى مروءة الدنى .. » البيان والتبيين ، مكتبة الجاحظ ، أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١٥٠ — ٢٥٥هـ ، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ( القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م ) الجزء الأول ص ٢٤١ .

(٣) الخطابة ، د. نقولا فياض ، ( ملحق الهلال ، ادارة الهلال بمصر سنة ١٩٣٠م ) ص ٥ ، ٦ .

(٤) تعليق لفؤاد أفرام البستانى ، على بحث لأحمد الصراف تحت عنوان « مقارنة بين المعرى والخيام » ، نشر فى مجلة المشرق ، مجلة كاثوليكية شرقية تبحث فى العلم والأدب والفن .. بادارة آباء كلية القديس يوسف ( مج ٢٦ سنة ١٩٢٨ ) ، ص ٤٤١ — ٤٥٠ .

« ١ »

**خطبة زياد بن أبيه(٥) :**

أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى

---

(٥) البيان والتبيين ـ مرجع سابق ـ الجزء الثانى ص ٦١ ـ ٦٦ ٠ وقارن : عيون الأخبار لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ( ت ٢٧٦هـ ) شرحه وضبطه د/ يوسف على طويل ( دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ بدون ) الجزء الأول ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ ٠

الجهالة الجهلاء : السفه الشديد ، وصف أريد به التوكيد والمبالغة ، كقولهم : ليلة ليلاء ، ويوم أيوم ٠ الضلالة العمياء : التى لاهدى معها ٠ الغى : الضلال والانقياد للهوى السفهاء : ج سفيه وهو سيء الخلق ٠ حلماؤكم : عقلاؤكم وضدها ، السفيه ٠ طرفت عينيه الدنيا : أصابتها فدمعت وأغلقت ، المراد ، صرفته الى زخرفها ٠ سدت مسامعه الشهوات : كناية عن تمكنها من نفوسهم ٠ المواخير : ج ماخور ، بيت الريبة والفحش دلج الليل : السير ليلا ، للتلصص والفتك ٠ يذب عن سفيهه : يدافع عن الأشرار الذين ينفذون مآربه ويبرر أعمالهم ٠ الكنوس : ج كانس: الظبى يدخل كناسه أى مأواه ، يريد أنهم مالوا الى المعاصى ٠ مكانس الريب : الأماكن المشبوهة ٠ الولى بالولى : يريد أنه يأخذ السيد بذنب عبده ٠ انج سعد فقد هلك سعيد : مثل يضرب لتتابع الشر ( لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف جـ ٢٣ ص ٢٠١٤ ) ٠ أو تستقيم لك قناتكم : أى تصلح حالكم ٠ اغتمزوها فى : اغتمز الشيء استضعفه والمعنى : عدوها من عيوبى ، وهذا من قبيل التحدى يقول الشعبى : فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة ، وما وعدنا خيرا ولا شرا الا انفذه ( تاريخ الطبرى ٢٢٤ ـ ٣١٠هـ تحقيق « محمد أبو الفضل ابراهيم » ( دار المعارف

بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا ينحاش عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الاليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمد الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه : من تركككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، وهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل • ألم تكن منكم نهاة تمنع العواة عن ولج الليل وغارة النهار ؟ ! قربتم الغرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس • أليس كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا • ما أنتم بالحلماء ، ولقد أتيتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا

---

===

١٩٦٣م ج ٥ حوادث سنة ٤٥ ) دعوة الجاهلية : الدعوة الى العصبية والتفاخر بها وبقولهم لهم : « يالفلان » استغاثة ، كانوا يدعون بعضهم بعضا عند الأمر الحادث الشديد • غرق أرضا : فجر فى أرضهم الماء ، لكثرة المياه فى البصرة • الاحن : ج احنة : الحقد • دبر أذنى : وراءها ، أى طرحت ذلك • صفحة الرجل : عرض وجهه والمراد حتى يجهر بالعداوة ذادة : ج ذائد : المدافع والحامى • الفىء : مال الخراج أو الغنيمة ، ويطلق على الظل كناية عن الحمى ، أى ندفع عنكم بنعمة الله التى وهبنا اياها ، أو بما صار فى أيدينا من أموال أعدائنا • ابان الشىء : أوانه • جمر الجند أو البعث : حبسهم فى أرض العدو • على أذلاله : ج ذل ، الوجه والطريق ، أى على وجوهه وطرقه • يقال : أمر الله جارية على أذلالها : أى مجاريها •

حرم الاسلام ، ثم أطرقوا وراءكم تدوسا فى مكانس الريب حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما واحراقا • انى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف • وانى أقسم بالله لآخذ الولى بالولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لى قناتكم • ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، واذا سمعتموها منى فاغتمزوها فى واعلموا أن عندى أمثالها •

من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما مذهب له • فاياى ودلج الليل ، فانى لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه •

وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم • واياى ودعوه الجاهلية ، فانى لا آخذ داعيا بها الا قطعت لسانه • وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا • فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم ، أكف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما علیه عامتكم الا ضربت عنقه • وقد كانت بينى وبين أقوام احن جعلتها دبر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم مسيئا فلينزع عن اساءته • انى والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى له أنفس له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى لى صفحته ، فاذا فعل ذلك لم أناظره • فاستأنفوا أموركم ، وارعوا على أنفسكم ، فرب مسوء بقدومنا سنسره ومسرور بقدومنا سنسوؤه •

أيها الناس ، انا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل وانصاف فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ورزقا عن ابانه ، ولا مجمرا لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لائمتكم ،فانهم ساساكتم المؤدبون ، وكهفكم الذى تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا .

ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول حزنكم، ولا تدركوا به حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم .

أسأل الله أن يعين كلا على كل . واذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله وأيم الله ان لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى .

## ـ خطبة الحجاج(٦) :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفونى

---

(٦) الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد . عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم ، ( دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة القاهرة ـ بدون ) جـ ١ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٨ . وقارن : البيان والتبيين ـ مرجع سابق ـ ص ٣٠٧ ـ ٣١٠ .

( ابن جلا : أى ابن رجل جلا الأمور وكشف الصعاب . الثنايا :

. . . . . .

=

ج ثنية ، الطريق فى الجبل ، أراد بذلك أنه جلد مغالب للصعوبات والبيت مطلع الأصمعية الأولى لسحيم بن وثيل الرياحى ( الأصمعيات، اختيار الأصمعى أبى سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ١٢٢ ـ ٢١٦هـ وتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ( ديوان العرب مجموعات من عيون الشعر ٢ الطبعة الخامسة ١٩٧٩ دار المعارف ) ، ص ١٧ .

هذا وان الرجز لروشيد العنبرى ، كما فى حواشى الكامل والبيان والتبيين ـ بقوله فى شريح بن ضبيعة الذى لقب « الحطم » بما فى الرجز ، لأنه ساق أصحابه سوقا عنيفا على طريق مغازة حتى نجوا ووردوا الماء . ورزيم : اسم ناقته أو فرسه . الوضم : ما يقطع عليه اللحم . العصلبى : القوى الشديد العصب . الأروع : الذكى . الدوى : الصحراء المتسعة ، يريد أنه يخرج من كل شدة . العرد : الشديد . البكر : الفتى من الابل . ما يقعقع : لا يضرب لى بالجلد اليابس كما يضرب به الابل لتنفر من صوته ، أي لا يرهبه وعيد أو تخويف . فررت فر الدابة ، كشف عن أسنانها ليعرف عمرها . الذكاء : نهاية الشباب وتمام الكنانة : جعبة السهام . عجم عيدانها : اختبرها ليبلغ صلابتها . أصلبها مكسرا : أى أقواها . أوضعتم فى الفتنة : أسرعتم فى اثارتها . السلمة : نوع من الشجر الشائك الذى يصعب خرط ورقه فيشد بعضه الى بعض ثم يخبط بالعصى ليتناثر ورقه . غرائب الابل : الابل الغريبة عن القافلة ، ذاك أن الابل اذا وردت الماء فدخل عليها غريبة من غيرها ضربت وطردت حتى تخرج منها . رغدا : طيبا واسعا . وفيت : صدقت . أهم : أقصد . أخلق : أقدر . فريت : قطعت ، أى انى ان عزمت مضيت فى عزمى . المهلب بن أبى صفرة : أبو سعيد بن أبى صفرة الأزدى البصرى قائد أهوى ولد بالبصرة ونشأ فيها وظهر أمره بمقاتلة الخوارج .

=

يا أهل الكوفة ! انى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وانى لصاحبها • وكأنى أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى •

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم
قد لفها الليل بعصابى
أروع خراج من الدوى
مهاجر ليس باعرابى
قد شمرت عن ساقها فشدوا
وجدت الحرب بكم فجدوا
والقرس فيها وتر عرد
مثل ذراع البكر أو أشد
لابد مما ليس منه بد

انى والله يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التين • وقد مررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة • وان أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال • والله لأحزمنكم

---

= وقد ولاه الحجاج خراسان وبها مات سنة ٨٢هـ ( الموجز فى الأدب العربى وتاريخه لحنا الفاخورى ١ — الأدب العربى القديم ، دار الجيل — بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م ) ص ٣٩٢ هامش ٣ •

حزم السـامة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، فانكم لكأهـل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغـدا من كل مكان ، فكفـرت بأنعم الله فأذاقها الله لبـاس الجوع والخوف بما كانوا يصنـعون • وانى والله ما أقـول الا وفيت ، ولا أهـم الا أمضـيت ، ولا أخـلق الا فريت • وان أمـير المؤمنـين أمرنى باعطائكـم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صـفرة • وانى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيـام الا ضربت عنقه •

« ٢ »

قال كل من الرجلين خطبته ، بوصفه واليا من قبل الحـزب الاموى الحاكم ، زيـاد يوم قدم البصرة واليـا عليها • والحجاج ابان توليـه أمـر العـراق •

وكانا الخطبتين تنم عن المناخـات التى عملت عليهـا ، وترشح بالأجواء التى تنفست فيها عبصره زيـاد ملأ « بالمواخير » و « مكانس الريب » •

**وعراق الحجـاج « يلفه الليـل » و « تجدبه الحرب » والعراقيون** « قد أوضعوا فى الفتن واضطجعوا فى مراقد الضلال » •

وهكذا تشابهت العوامل والدواعى ، حيث ان الرجلين كانا واليين على المناطق نفسها تقريبا ، تلك المناطق التى كانت تنغل بالتمرد والفتن والفساد ، فقد كانت بلاد العراق منذ الفتح العربى حتى نهايـة الدولة الأموية مركزا للفتن والثـورات ، موطنا للثائرين وذوى الأطماع مثل زعماء الشيعة والخوارج وغيرهم ، شرارة انفـجار العصبية القبلية التى تفرعت عنها نزعة اقليميه وكراهية متأصـلة لبنى أمية ، فضلا عـن أن

العراق كان منبع الديانات القديمه والمذاهب الغريبة(٧) .

ومهمه الرجلين ، وهما من ولاه الأمويين على العراق المناوىء ، تبدو واحدة ، ان هذه المهمه تتمثل فى توطيد سلطان بنى أمية وقمع الثورات واخماد الفتن ومحاربة الفساد ...

وفى هذا الصدد فان زيادا بوصفه أحد الرجال المخلصين ، يدلف الى حداء الخليفة ، مضفيا على الخلافة هالة شرعية « أيها الناس ، انا أصبحنا لكم سادة ... وسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة ..» .

وهو — بدايه — يقيم كتاب الله ، مصباح هداية وطريق نجاة « كانكم لم تقرءوا كتاب الله ... » وبذا يعزف على أوتار العاطفة الدينيه ، مستدرجا اياهم الى طريق الخلاص ، « ... ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم ... والعذاب الأليم ... آثارون دنيا ... اختار الفانية على الباقية ... قربتم القرابة وباعدتم الدين ... » ويحاول — كذلك — أن يحرك فيهم عاطفة الكبرياء ، فيؤكد أن حلماءهم قد أوذوا فى شرفهم عندما تركوا السفهاء ينتهكون حرم الاسلام ، لقد جاء سكوتهم على حساب الكرامة .

والحجاج — فى هذا الخصوص — يصرح بأنه موجه الى رجال اقليمه من قبل « أمير المؤمنين » ويدعو للخليفة أن يحفظه الله

---

(٧) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى السياسى ، الاجتماعى ، الاقتصادى للدكتور / على حسنى الخربوطلى (دار المعارف بمصر ١٩٥٦م) ص ٩ وما بعدها .

حين يبين لأهل العراق السبب الذى اختـــاره من أجله واليا عليهم ، « وان أمير المؤمنـــين ــ أطال الله بقاءه ــ نثر كنانته ... »

وهو ايضا فى محاولة اكساب خطبته طابعـــا اسلاميا مؤثرا ، يرد منهل القرآن الكريم ، من ذلـــك تضـــمين خطبته ما تيسر منـــه فى قـــوله :

« ... لأنكم طالما أوضـــعتم فى الفتنة » (٨) واقتـــباسه من الصور القرآنية المبتـــكرة ، يلون بها خطبته ويوسع من آفـــاق خياله، انه أن يصور حاله وحال أهل الكوفة يقول :

« .... هانـــكم اكأهل قرية كانت آمنة ... »(٩) .

وقد أجد من المناسب هنا أن أشـــير الى مصطلحات ومفاهيـــم خطابية تولدت نتيجة الاستجابه للاثر الاسلامى أو اغفاله ، من مثل : « الخطبة البتراء » وهى التى لم تبتدأ بالتحميـــد وتســـتفتح بالتمجيد و « الخطبة الشوهـــاء » وهى التى لم تزين بالصـــلاة على النبى ﷺ(١٠) .

---

(٨) انظر الآية ٤٧ من سورة التوبة .

(٩) انظر الآية ١١٢ من سورة النحل .

(١٠) البيان والتبيين ــ مرجع سابق ــ جـ ٢ ص ٦ . من هنا أطلق لفظ « البتراء » على خطبة زياد وان كان هناك من يرجح ، لأسباب تبدو وجيهة أنها سميت كذلك ، لأنها كانت فى قوة أثرها فى نفوس أهل البصرة كالسيف الباتر . راجع ، الخطابة العربية فى عصرها الذهبى لاحسان النص ( مكتبة الدراسات الأدبية ٣٠ دار المعارف بمصر ١٩٦٣م ) ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

وكلا الخطيبين يتشبث بالنفوذ التام ويتخم نفسه بالهيمنة ، فزياد يسن قانون عقوبات رادعة لا هوادة ولا ابطاء فى تنفيذها ،

« ... وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوما أغرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ... »

ويهدد ويتوعد لاثارة الذعر فى النفوس وبعث الهيبة والخشية فى القلوب ، « وانى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى ... »

الحجاج — فى هذا المقام — يبدو قبالة مشاعر سامعيه ، طاغيا عارما ، عاصفا مادقا ، يحصد الرؤوس ، ويسفك الدماء ، وينتهب الأموال ، دون تفريق بين صغير وكبير وسفيه وحليم . ان سياسة الطغاة والديكتاتوريين ، سياسة التسلط والاجتراء ، والانتقام الاستلاب والضراوة والتهاب — تكاد تشمل خطبته كلها ، بدءا من دخوله المسجد ملثما ، ليسترهب الناس ويخوفهم ، وانتهاء بما يزحمهم به من عذابات وما يؤرقهم به من مطالب متواصلة (١١) ، مرورا

---

(١١) مما حدث به التوزى بسنده أن الحجاج دخل المسجد الجامع بالكوفة معتما بعمامة غطى بها أكثر وجهه ، متقلدا سيفا ، متنكبا قوسا يؤم المنبر ... فمكث ساعة لا يتكلم ... فلما رأى عيون الناس اليه حسر اللثام عن فيه ونهض وقال : « انا ابن جلا ... » .

ولما فرغ من خطبته أمر غلامه بقراءة كتاب أمير المؤمنين وفيه يقرئ أهل الكوفة السلام فلم يقل أحد منهم شيئا ، فاستنكر الحجاج عليهم ذلك قائلا : هذا أدب ابن نهية ( أحد رجال شرطته على البصرة ) أما والله لأودبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن واستعاد القراءة فلما بلغ القارىء الى قوله : « سلام عليكم » لم يبق أحد الا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

( الكامل للمبرد — مرجع سابق — جـ ١ ص ٣٨٠ ، ٣٨٢ ) .

بتزكيه نفسه وتضخيم ذاته ، وتغنيه بعزمه وحزمه ، من أجل تحقير أهل ولايته وتصغيرهم ، لينصاعوا وينقادوا بل ليتزلزلوا ويحيدوا .

والحجاج فى هذا لا يسلك مسلك نظيره زياد الذى يفيء — مع تشديد أمر السلطان — الى العدل — انه يقيم سياسته على اللين والشده معا ، لين الغادر من غير عجز ، وشدة الحاكم بلا جبروت وكانه يلمس جوانب مصيبة فى صدور محكوميه « انى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ... » .

ولا الخطيبين داهية ، فاضافه الى ما تقدم من أمارات دهاء لديهما فان هناك ما يؤكد تمتعهما بدهاء واسع ، ان زيادا اذ يستأنى الأخذ بالظنة والعتاب على الشبهة ، يعلن : عفا الله عما سلف « وانى أقسم بالله لآخذن الولى بالوانى والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ... » .

« وقد كانت بينى وبين أقوام احن جعلتها دبر أذنى وتحت قدمى .. » وهو اذ يطرح معادلة الحقوق والواجبات التى تنـاط من الحاكم والمحكوم ، يقرر عند سامعيه أنه سيبدأ بنفسه « فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والانصاف فيما ولينا .... » ، « .... واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ورزقا عن ابانه ، ولا مجمرا لكم بعثا .... »

والحجاج يتصرف بسعة حيلة حين يحاول التمويه على المحكومين ، انه اذ يلجأ الى تعظيم العقوبة التى يتهددهم بها فانه فى مقابل ذلك يعظم ذنبهم ، يبدو وكأنه الجزاء من جنس العمل ، « لأنكم طالما

أوضعتم فى الفتنة .... والله لأحزمنكم حزم السلمة .. » وهو اذ يرجى الأمر لأهل الكوفة بالتوجه الى محاربه عدو الحزب الحاكم مع قائده المهلب بن أبى صفرة ، يقرن هذا الامر باعطاء الاعطيات ، وكأنه يقول : لا عذر — أذن — فى عدم تنفيذ الأمر « وان امير المؤمنين امرنى باعطائكم أعطياتكم ..... » كذلك فانه اذ يؤكد على صدق وعيده ، يحاول أن يثأر السامعون بعباراته اللاسعة فى غير ما تصور منهم بأنه التهديد ليس التنفيذ ، وذلك فى منظومة ترادفية رنانة ، صاخبة « وانى والله ما أقول الا وفيت ..... »

من خلال ما تقدم تتضح معالم وأبعاد شخصية زياد وشخصية صنوه الحجاج ، ولعل أهم ما يلاحظ فى سياق ذلك ، تمتع كليهما بفراسه باصره ، ووجوه طاغ ، وتغور لنفسية الجمهور ، وادراك لنهج السياسة حاذقا ماهرا او معارضين ، وان تميز زياد بالتعقل والانضباط والمرانة فرأيناه واعظا مشترعا وحاكما عادلا وسياسيا بارعا . أما الحجاج فكان جسورا حد الندرة ، ونقد أوغل فى القسوة وكان كلامه ، وهو صدى انفعالات نفسه الهائجه المائجة ، يندفع اندفاعا محموما كمعذوفات الهراطين ، كأنه يطلب من سامعه الاذعان دون أن يخوض به تجربة الاقتناع .

وقد صح فيهما القول . تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فاهلك الناس(١٢) ان تجربة زياد الخطابية اعتمدت الصرامه والحدة بينما استندت التجربة الخطابية عند الحجاج الى التخويف والارهاب ويمكن لى القول ان الخطيبين قد قاتلا بالكلمة فى سبيل ما هدفا اليه ...

---

(١٢) العقد الفريد تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى المتوفى سنة ٣٢٨هـ بتحقيق محمد سعيد العريان المكتبة التجارية الكبرى شارع محمد على بمصر الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م ) .

هذا سارت الخطابة فى ركاب السياسة ، تخدم أغراضها ، وتصير على مراعاتها ، لقد استعملت آلة للعقوبة بالتوبيخ والتقريع والتعيير والتهديد ونحو ذلك ، ومن هنا يقف بعض الباحثين عند هذا المنعطف ، فيراه تطورا قد طرأ فى مسيرة الخطابة الأموية(١٣) • وإذن فهما يمثلان تمثيلا صحيحا وجها من الوجوه التى تطورت اليها الخطابة العربية عصرئذ •

ان زيادا والحجاج ، بهذه الخصوصية ، يثيران انتباه أحد الباحثين القدماء ، فيدرج كلا منهما مع الطالبين والبرامكة قائلا : ••• كان هؤلاء الذين جردنا لهم كتابنا هذا قطب الملك الذى عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير ، وينابيع البلاغة وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها وخزموا الأنوف حتى سكنت نوارها ، ومارسوا الامور وجربوا الدهور فاحتملوا أعباءها واستفتحوا مغلقها ، حتى استقرت قواعد الملك وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان(١٤) • أما على مستوى النقاد المحدثين فان منهم من يجعل معدن عبقريتهما يتوقد مع فئة معينة من القراء يقول : « ليس كل الناس يتذوق زيادا والحجاج(١٥) •

---

(١٣) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية للدكتور مصطفى الشكعة ( مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨م ) ص ٢٦٤ • والخطابة العربية وفن الالقاء للدكتور أشرف محمد موسى ( مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٧٨م ) ص ٣٩ ولمزيد من التفصيل راجع الخصائص المضمونية لخطب الأمويين وأنصارهم فى كتاب الخطابة العربية فى عصرها الذهبى ـ مرجع سابق ص ١٥٢ ـ ١٦١ •

(١٤) العقد الفريد ـ مرجع سابق ـ جـ ٥ ص ٢٤٧ •

(١٥) من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين ( دار المعارف بمصر الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٥م ) •

(( ٣ ))

وعن الصعيد الشكلي أو الفني فان كلتا الخطبتين ، وقد أفصحت عن سمات شخصية صاحبها فانها ايضا تشيء بما يتحلي به قائلها من بلاغة وفصاحة وبيان ، وبالنسبة الى منهج الخطبة وبنائها الفني فواضح آن خطبة زياد قد سادها ترتيب منطقي رائع وتسلسل ترابطي جيد ، وهو أمر يؤكده بعض الباحثين فى تلاحم أجزاء الخطبة على النحو التالي :-

فى الجزء الأول : وقف موقف المتهم لانتهاك حرم الاسلام وعنفهم بشدة ، تمهيدا لاخذهم بحد السيف • وفى الجزء الثانى : وقف القاضى المشرع فبين لهم أنهم أحدثوا أمورا منكرة ، فاوجد لهم عقوبات رادعة • وفى الجزء الثالث : وقف موقف الحاكم النزيه المرتفع عن التعصب • وفى الجزء الرابع : وقف موقف السياسى المحنك يبث الدعوة للأمويين • وفى الجزء الخامس : وقف موقف الشرطى الذى ينتظر تنفيذ العقوبة فى المحكوم عليهم(١٦) •

أما الحجاج وقد غرق فى الانفعالات فان تناسق خطبته بدا ثقيلا ويجتهد بعضهم فى أن يرى عناصر تتداخل فى نسيج هذه الخطبة يقول : تضمنت خطبة الحجاج عناصر ثلاثة :- ١ - تقديم نفسه لأهل الكوفة والتعريف بشخصيته الفذة التى رماهم بها عبد الملك بن مروان • ٢ - دم آدل العراق ، أهل الشقاق والنفاق • ٣ - التهديد والترهيب بعد الانذار والتحذير(١٧) •

---

(١٦) الخطابة العربية وفن الالقاء - مرجع سابق - ص ٤٥ •

(١٧) روائع الأدب فى عصور العربية الزاهرة مختارات أدبية من عيون الشعر والنثر شرح ونقد وتعليق د• محمد نبيه حجاب ( دار المعارف =

وبعضهم وقد نظر الى طبيعة شخصية الخطيب دون تأكيد على على الاشياء المهمة التى تدعم أركان البناء الهيكلى للخطبة فانه رأى فيها تسلسلا واحكاما ، يقول . كان التجانس تاما بين المقدمة والموضوع والخاتمة ... فقد بدأها بأشعار صور فيها نفسه بالقوة والقدرة على كبح جماح الظالمين وعلى قمع كل فتنة يقوم بها أو يفكر فى القيام بها أحد العراقيين ، ثم انتقل الى الموضوع وهو أن عبد الملك اختار من بين رجاله أشدهم بأسا وأقواهم شكيمة وأضبطهم للامور وأحزمهم فى تصريف الشئون فولاه على أهل العراق ، ذلك هو الحجاج هذا هو الجزء الاول وأما الثانى من موضوع هذه الخطبة فهو تبيين السياسة وتوضيح السيرة التى اعتزم انتهاجها احجاج فى أهل العراق وهى من الشدة والحزم والقسوة والعنف والبطش بأسمى مكانة وأعلى منزلة ثم ختمها بدعوة الناس الى اللحاق بجيش المهاب وأنه من تأخر أو تلكأ منهم عن ذلك بعد أخذ عطائه فسوف يلقى حتفه بسيف الحجاج(١٨) .

ومما يقنعنا هنا هو ما أورده شوقى ضيف فى هذا الصدد ، اذ لاحظ أن زيادا قد عنى بتأليف خطبته عناية شديدة ، فهى مقسمة الى فقر ، وكل فقرة تضم الى أختها والأفكار تتسلسل فى نظام ، ذلك أنه لم يكن ذا عقل فطرى بسيط ، فعنه مدعوم بالفكر الجديد الذى أخذ يستوعب ما لدى الأجانب من نظريات . لقد تفوق زياد على الحجاج فى

---

=
بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٧٢م ) الجزء الأول ( عصر الراشدين وبنى أمية) ص ٢٣ .

(١٨) الحجاج حياته وخطابته لعلى صافى حسين ) مختارات الاذاعة والتليفزيون ـ مذاهب وشخصيات بدون ) ص ٥٦ ، ٥٧ .

بناء خطبه بعامه واحكام تاليفها ، بحيث تتابع فى فقر وأجزاء متسلسلة(١٩) .

ورغم اللغة فان زيادا يتخير الالفاظ المحاكية المضمون ، ويعتنى بالمفردات الدقيقة الاداء للمعنى ، ويصوغ عباراته حافلة بالأساليب المتنوعة من تقرير وانشاء وأدوات بلاغية « أتكونون كمن طرقت عينيه الحيا ..... الم تكن منهم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ ! .... أليس كل امرىء منكم يذب عن سفيهه .. وانى أقسم بالله لآخذن .....

ويحاول بعضهم الوقوف على خصائص أسلوب زياد بقوله : ان ألفاظ زياد جزلة مختارة ليس فيها غريب مستكره ، ولا ساقط رديء وانما فيها القوة والمتانة . وأسلوبه محكم قائم على استخدام اللفظ المصقول الرصين الذى بروعنا برونقه وسلاسة نظمه ووضوح دلالته(٢٠) .

أما الحجاج فى هذه النقطة فان من ألفاظه ما يعز فهمه ، حيث يخلع عليها طابعا تغريبيا يستطيبه فى الشعر الذى يصطفيه ، منفردا به عن زياد ، وخطبته هنا يستهلها بمثل هذا الشعر على غير عادة من يتمثل بالشعر ، اذ تدرج أبيات الشعر ضمن الخطبة أو فى نهايتها(٢١) وكأنما يجعله — فيما يقول أحدهم — فاتحة موسيقية له ، وهى فاتحة يتبدى

---

(١٩) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ( مكتبة الدراسات الأدبية ١٩ دار المعارف بمصر ١٩٨٣ ط ١٠ ) ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

(٢٠) الفن ومذاهبه فى النثر العربى — مرجع سابق — ص ٨٢ .

(٢١) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى — مرجع سابق — ١٩٤ .

فيها ويطالب التشبه بالبدو(٢٢) • ويرى بعضهم أن لهذا الشعر حضور ففيا مؤثرا ، حيث أن الاستشادات الشعريه فى خطبة الحجاج تسهم فى بناء الخطبة فتدعم الصورة بما تشيعه من اغراب واحالة على عالم خاص ، كما تدعم الصوت والايقاع(٢٣) • وفى اطار التميز فان معجم الحجاج اللغوى يبدو ذا نتوءات خاصة فهو مترع بالهجاء « اضطجعتم فى مراقد الضلال •••• لأحزمنكم حزم السلمة •• » وطافح بالحقد « غرماكم بى •••• ضربت عنقه •• » • وامعانا فى التحفز والاقذاع يلجأ الحجاج ، بدافع عاطفته المتأججة ، وربما تقريرا للفكرة فى ذهن المخاطب ، الى القسم ، والى التوكيد والقسم ، والى التوكيد بعدة مؤكدات » والله لأحزمنكم ••• انى والله يا أهل العراق ••• وانى أقسم بالله لا أجد ••• انى لأرى رؤوسا قد أينعت ••• أما الصور البيانية فان زيادا من خلال موقفه المتزن يقتصد فى التخييل ، ولكنه ان يلجأ اليه فانه يأتى بما يروع ، وجمال الصورة الاستعارية واضح فى قوله : « أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا •••• لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى •••• » ورهافة الحس فى استخدام المثل جلية فى قوله « ••• حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد » •

وفى المقابل فان الحجاج يفسح للصورة الخيالية مكانا رحبا فى خطبته ، انه يركز على الصورة بضروبها المتعددة فمن الصور التشبيهية :

---

(٢٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى – مرجع سابق – ٨٣ •

(٢٣) فى بلاغة الخطاب الاقناعى مدخل نظرى وتطبيقى لدراسة الخطابة العربية ، الخطابة فى القرن الأول نموذجا لمحمد العمرى (سلسلة الدراسات النقدية دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ – ١٩٨٦ ) ص ٦٦ •

« ولا يغمز جانبى كتعماز القين ، لأحزمنكم حزم السـامة ، لأضربنكم ضرب غرائب الابل » وغير خاف أنها أيضا كنايات لها قيمتها فى مثل مقام الحجاج ومن الصور الاستعارية « ولقد فررت عن ذكاء .. وان أمير المؤمنين نار كنانته .... » وهذا حدا بأحد الباحثين الى القول : ان الحجاج تتمن عبقريته الفنية فى طريقة الصوغ والافتنان فى التشبيه المصيب والاستعارة البارعة والكناية الخفية(٢٤) . ويرسخ ذلك بعضهم فى قوله : وأبرع خطباء السياسة فى عصر بنى أمية اصطناعا للأسلوب التصويرى ، الحجاج ، وهو ينعمد الاتيان بالصور المخيفة ، ارهابا لمعارضيه ، ولا ريب أن سامعيه قد أخذهم الرعب وهم يسمعونه يشبه رؤوسهم بالثمار اليانعة التى حان قطافها ... وفى هذه الصورة ما فيها من السخرية بالمعارضين والاستخفاف بأمرهم . وقد شبه نفسه بالسهم القوى قد أختاره الخليفة بين سهام كثيرة تمتلىء بها كنانته ليرمى بهـا أعداءه وخطبته هذه مزدحمة بالصور والأخيلة وأكثرها مستمد من البيئة البدوية(٢٥) . وهكذا فان أحدهم يقرر — صوابا — تفوق الحجـاج فى هذا المضمار على زياد قائلا : ومما لا شك فيه أنه يتفوق على زياد فى ابتكار الصور والتشبيهات والاستعارات ، انه يعمد الى طائفة من الصور الغريبة وهى تتراكم فى الخطبة تراكما شديدا(٢٦) .

وعن الايقاع الخطابى(٢٧) فان الايقاع فى خطبة زياد يتنوع بين

---

(٢٤) روائع الأدب فى عصور العربية الزاهرة — مرجع سابق — ص ٢٢٤ .

(٢٥) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى — مرجع سابق ص ٢٠٠ .

(٢٦) الفن ومذاهبه فى النثر العربى — مرجع سابق — ص ٨٤ .

(٢٧) فى بلاغة الخطاب الاقناعى — مرجع سابق ص ١٠٣ — ١١٣ .

السجع والازدواج والارسال ، ومما هو مسجوع : « الجهالة الجهلاء « لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف» ما أنتم بالحلماء وقد اتبعتم السفهاء ٠٠٠٠ ومما هو مزدوج : « قربتم القرابة وباعدتم الدين ٠٠ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا ٠٠٠ لأحدن الولى بالولى ، والمقيم بالظاعن والمقبل والمدبر والمطيع بالعاصى ٠٠٠٠ وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبه ٠٠٠ لم اكشف له قناعا ولم أهتك له سترا ٠٠٠ » مع ملاحظة المقابلة بين المعانى والحالات ٠٠٠ اضافة الى الارسال ، حيث ان هناك ، الى جانب هذه الجمل القصيرة ، جملا تفوقها طولا ٠

وعلى صعيد الايقاع عند الحجاج فهناك تقسيم الجمل وتوازنها « ولقد فررت عن ذكاء ٠٠٠ فوجدنى أمرها عودا ٠٠٠ » وقد يقع فى عبارات الحجاج بعض السجع لخدمة الايقاع ولكنه سجع غير متكلف « وانى والله ما أقول الا وفيت ، ولا أهم الا أمضيت ، ولا أخلق الا فريت » ٠٠٠ انه سجع ذو خصوصية يقول بعض الباحثين : «والأمر الذى نلمسه فى خطابة الحجاج هو تلك الصنعة البدوية التى تتسلح بالسجع على أنه تكرار صوت القضاء المحتوم ، والسجع فى خطبته محكم الفواصل شديد الروى »(٢٨) ٠

ويجدر أن نذكر هنا محاولة البعض تقسيم الخطابة فى ذلك [illegible]

حسب العنصر الصوتى الايقاعى الى ثلاثه مستويات :ـ

( أ ) خطب كثيفة الصناعة : مسجوعة ٠

(ب) خطب متوسطة الصناعة : بين السجع والازدواج ٠

(ج) خطب مرسلة قليله الصناعة ٠

---

(٢٨) الموجز فى الأدب العربى وتاريخه ـ مرجع سابق ـ ص ٣٩٥

ويضع خطابة زياد والحجاج بعامة فى المستوى الثانى وان شدد على غنى خطبتنا من جانب الايقاع اذ حرص الحجاج على الموازنة بين الصورة والايقاع(٢٩) ٠

وتبقى الاشارة الى نفس الخطبتين، ان زيادا — مما هو واضح — أطول نفسا ، فخطبته تمتاز بالطول ، لكنه ليس الطول المطنب المسهب ، انه الطول المعتدل ، فهى طويلة نسبيا ، أما خطبة الحجاج فانها أدنى الى القصر منها الى الطول ، وبذا فاننا لا نفاجأ فى كلتا الخطبتين بما هو غير عادى أو شاذ يقول بعض الباحثين : خطب الأمويين ومن والاهم فيها الطويل المفرط فى الطول ، وفيها المتوسط وفيها القصير المفرط فى القصر وخطب زياد والحجاج بين الطول والقصر(٣٠) ٠

ولا يفوت المرء أن يقول كلمة فى الارتجال والاعداد مما هو من قضايا الخطبة ويبدو نميل الى أن كلا من زياد والحجاج قد نظر فى خطبته ، فقد وجدنا على مستوى مضمون قضايا ومفاهيم ومناهج كما وجدنا على المستوى الشكلى ظلالا وألوانا وصورا ، اضافة الى أن الخطابة السياسة — بالذات — ليست سهلة(٣١) انها ابداع تفرزه معاناة المخطيب التى تختمر فى داخله لتنطق على لسانه ، وقدرته الفائقة التى تشد انتباه السامع فيملؤه الانفعال عن قناعة تامة. يقول أحد الباحثين: [illegible] الاعداد الواضحة فى كثير من خطب العصر كخطب الحجاج وزياد ان [illegible] ... فهى موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، جيدة الأسلوب ، متوازنة

---

(٢٩) فى بلاغة — الخطاب الاقناعى — مرجع سابق ص ١٠٧ ومابعدها

(٣٠) الخطابة أصولها ، تاريخها فى أزهر عصورها عند العرب للامام « أبو زهرة » ( دار الفكر العربى الطبعة الثانية ١٩٨٠ ) ص ٣١٠ ، ٣١١ ٠

(٣١) الخطابة — مرجع سابق — ص ١٢٩ ٠

الجمل ، معتمدة على أنواع من الحيل • بها يسجع مقصود لكنه غير مستكره ولا متكلف ، وبعضها يشتمل على مقدمة تمهد للموضوع ينتقل منها الخطيب الى الموضوع نفسه وقد يمزج بعرض الموضوع تدليله على رأيه وتفنيده لدعوى خصمه ثم يختم الخطبة بعبارات يلخص بها موضوعه أو يستميل السامعين ويستثيرهم كما نجد فى خطبة الحجاج بالكوفة ••• ولم يدن من المصادفة أن تجيء هذه المراحل ، بل هى ثمرة الاعداد واستعداد(٣٢) •

## (( ٤ ))

هذا ما رأيناه من أوجه تماثل وسبل تخالف عند زياد والحجاج فى خطبتيهما وقد يقتضى البحث أن نجيب عن سؤال يطرح نفسه وهو : أيهما أخطب ؟ ونحن احقاقا نحق ، لا يحق لنا أن نرجح كفة أحدهما على الآخر ، نتيجة النظر فى عمل واحد من أدبهما الخطابى — وان كان هذا العمل تكاد تقوم عليه شهرة كليهما — كما أن هناك أمورا ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان ، فاذا كان الحجاج قد اشتهر عنه خفته الى المنبر ، وأنه ربما خلق ليكون أديبا وخطيبا ، فان زيادا هو الذى قد خط له الطريق(٣٣) • واذا كان الحجاج لتمكن النزعة البدوية منه وسلطانه الواسع على اللغة وتأصل الموهبة الفنية فى قواه الذهنية واللسانية أقدر من زياد فى بعث الذهول فى نفس المستمع فينهال عليه

---

(٣٢) أدب السياسة فى العصر الأموى للدكتور أحمد محمد الحوفى ( مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٦٠م ) ص ٣٠٥ وراجع فن الخطابة للمؤلف نفسه ( دار نهضة مصر للطبع والنشر — الفجالة — القاهرة ١٩٧٢م ) ص ٢٢٤ — ٢٥١ •

(٣٣) الوجز فى الأدب العربى وتاريخه — مرجع سابق — ص ٢٩٣

تهديدا وترهيبا ... فان هناك من يمكن أن يعد أحيانا أخطب منه وأرسى وأعف وأدبق وهو زياد بن أبي سفيان الذي عرف باسم زياد ابن أبيه(٣٤) . واذا كانت هناك مقولات من قبل الأدباء والنقاد تشيد ببلاغة الحجاج ومقدرته الخطابية ، فان هناك ما يماثلها مدحا بموهبة زياد وحذق(٣٥) .

---

(٣٤) الادب في موكب الحضارة الاسلامية ـ مرجع سابق ـ ص ٢٥٢ وانظر ص ٢٤٨ .

(٣٥) مما قيل في الحجاج : قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أحدا أفصح من الحسن البصري والحجاج ( الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي ( الطبعة الثانية ـ بدون ) جـ ٢ ص ١٧٥ . وقال الأصمعي : أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج أفصحهم ( الخطابة العربية وفن الالقاء ـ مرجع سابق ) ص ٥٥ . وقال عبد الملك ابن مروان : لخالد بن سلمة القرشي المخزومي : من أخطب الناس ؟ قال : أنا ثم من ؟ قال : ... روح بن زنباع ، قال : ثم من ؟ قال : أخيفش ثقيف يعني الحجاج قال : ثم من ؟ قال : أمير المؤمنين ! ( العقد الفريد ـ مرجع سابق ) ص ١٢٢ .

ومما قيل في زياد : يقول الشعبي ـ بسنده ـ : ما سمعت متكلما قط تكلم فأحسن الا أحببت أن يسكت ، خوفا من أن يسيء الا زيادا فانه كان كلما أكثر كان أجود كلاما . ( الطبري ـ مرجع سابق ) جـ ٥ حوادث سنة ٤٥ ص ٢١١ . ويقول أيضا : ما رأيت أحدا أخطب من زياد ( الأعلام للزركلي ـ مرجع سابق ) جـ ٣ (زى) ص ٨٩ ، وقالوا : الدهاة أربعة : معاوية المروية ، وعمر بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة ( العقد الفريد ـ مرجع سابق ـ) جـ ٥ ص ٢٥٠ .

وفوق ما تقدم فان هناك جانبا كبيرا مفقودا فى فنيـة اللـون الخطابى • ان الخطابة تلذنا عنـدما نسمع صوت الخطيب والتشكيلات المختلفه التى يشكل بها هذا الصوت ، ونرى هذه الحركات المتباينة التى يتحركها الخطيب ، مرة بيده ومرة بجسمه • كل هذه تصحب الكـلام فتقوى لذته الفنية بحيث لا تكون اللذة واحدة اذا سـمعنا الخطيب أو قرأناه(٣٦) وعلى الرغم من ذلك فان هناك من يذكر رأى أحدهم بتفوق الحجاج وان كان يعلق عليه فى احتراس يقول : وقـد لاحـظ « بيكـر » ان أى موازنة ولو من بعيد بين الحجاج وبين اى وال آخر هى بمثابة حكم بالموت الأدبى على هذا الوالى ••••• على ان التاريخ البعيد عن الهوى يضعه فى صف زياد بن أبيه ويعده واحدا من ساسة بنى أمية الذين استحقوا من وطنهم كل تقدير(٣٧) •

وهناك من يعلن فذوذية بتراء لا على مستوى خطابة الحجـاج ولا على مستوى الخطابة السياسية وانما على مستوى الخطابة فى عهد

---

(٣٦) من حديث الشعر والنثر ـ مرجع سابق ـ ص ٤١ •

(٣٧) دائرة المعارف الاسلامية اعداد وتحرير ابراهيم زكى خورشيد أحمد الشنتاوى ، د• عبد الحميد يونس ( كتاب الشعب ، التراث والعلوم الاسلامية لكل الشعب مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع بقصر العينى بالقـاهرة الطبعة الأولى مارس ١٩٧٥ ) المجلد الثالث عشر ص ٣٦٧ وقد جاء فى ص ٣٦٦ ما نصه : « وطالما قورن الحجاج بزياد بن أبيه أحد وزراء الدولة الأموية وهو ثقفى مثله وأشهر من ولى العراق من أسـلافه • الا أن نشـاط الحجاج الجم وطبعة الحاد المضطرم وفصاحته الدامغة المثيرة كانت حريا عليه ، فقد كانت تنقصه تلك البشاشة وذلك الحلم المشوب بالشك وهما الخلتان المـأثورتان عن الساسة الذين نحوا نحو معاوية » •

بنى أمية يقول : اننا قلما نجد خطبة أموية تماثلها فى حسن التقسيم وجودة الترتيب وهى ما قاله ولاة العصر الأموى لايضاح خطتهم فى الحكم وسياستها التى سيسيرون عليها ، وهى بما اشتملت عليه من مبادىء سياسية كانت صالحة لأن تكون دستوراً للسياسة والولاة فى ذلك العصر، كما أنها بفصاحتها وروعة بيانهاتعد نموذجا ممتازاللفصاحة العربية الخالصة • واذا كان الحجاج أوغل فى البيان العربى الأصيل من زياد وخطيبا من الطراز الأول ، فانه كان تلميذاً فى مدرسة زياد السياسية ولم يستطع أن يأتى بخطبة تضاهىء خطبة زياد فى الكمال الفنى ، وكانت أجود خطبه ، وهى خطبته يوم ولى الكوفة ، بعيدة عن حسن التنسيق والترتيب وليس فيها الا تصوير لشخصية الحجاج المخيفة وتهديد بالبطش لكل من تسول له نفسه الخروج عن طاعته(٣٨)•

وعلى كل فعلى أتوفق اذ أقول ان الصعود والهبوط قد راوحا بين الخطبتين والمهم أن كلتا الخطبتين قد أدت مقصدها وحققت هدفها(٣٩) والأهم ان كلتا الخطبتين جاءت على صورة بيانية عالية تطرب وتعجب ، وهنا نجد الفرصة سانحة لأعود الى التذكير بأن الخطابة والشعر كانا فرسى رهان • لقد قالوا — حول موضوع بحثنا :— كان للخطابة السياسية فى الاسلام لا يقل أهمية عن دلك الدور الخطير الذى قام به الشعر فى العصر الأموى حين قامت العصبية بين الهاشميين والأمويين

---

(٣٨) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى — مرجع سابق — ص٢٢١

(٣٩) راجع أصداء خطبة يزيد فى كتاب البيان والتبيين — مرجع سابق — جـ ٢ ص ٦٥ ، ٦٦ • وخطبة الحجاج فى كتاب الكامل للمبرد — مرجع سابق جـ ١ ص ٣٨٠ ، ٣٨٢ •

إن خطب ولاة الأمويين كانت تعبيرا صريحا بليغا عن الصراع السياسى الذى كان قائما على أشده فى تلك الحقبة من تاريخ الاسلام(٤٠) .

وإذن فلا غرو من ان نؤكد على قيمة الخطابة فى عمومها ، وأن نسرع الى تثمينها والاهتمام بها ابداعا ودراسة ، لا بل نعمل على استعادة أمجاد العرب فى الخطب(٤١) ربما يتحقق ذلك بانشاء مدارس لتعليم الخطابة كما كان عند العرب(٤٢) وكما هو موجود حاليا لدى الغربيين ، لقناعتهم بالدور الخطير الذى عادت تلعبه الخطابة فى توجيه الرأى وبلورة الفكر المعاصر(٤٣) .

لقد كانت الكلمة من المميزات الحضارية الرئيسة للعرب منذ القدم البعيد وعلى عهودهم المختلفة ، الكلمة البليغة المؤثرة بأى نوع من أنواع موحياتها ، بتراكيبها المختلفة وأهداف معالجة موضوعاتها المختلفة أيضا ، وكذلك الكلمة الفصيحة العربية المبينة والمعربة عن مفهوم

---

(٤٠) الخطب والمواعظ ، لجنة من أدباء الأقطار العربية ( فنون الأدب العربى ، الفن التعليمى ) دار المعارف نوفمبر ١٩٥٥م ، ص ٩٠ .

(٤١) الخطب التى يتخير لها الكلام وتفاخرت بها العرب فى مشاهدهم ونطقت بها الأئمة على منابرهم وشهرت بها فى مواسمهم ، وقامت بها على رؤوس خلفائهم ، وتباهت بها فى أعيادهم ومساجدهم ووصلتها بصلواتهم وخوطب بها العوام واستجزلت لها الألفاظ وتخيرت لها المعانى ( العقد الفريد ـ مرجع سابق ـ جـ ٤ ص ١٢٢ ) .

(٤٢) الخطابة كنشر فنى للدكتور عثمان بوغاغى ( نشر مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله تونس ١٩٧٨ ) ص ١٣٨ .

(٤٣) فى بلاغة ـ الخطاب الاقناعى ـ مرجع سابق ـ ص ٩ ، ١٠ .

صاحبها مع التكيف بمقادير التلقى للمخاطب وهنا ـ بالذات ـ الكلمة فى اطارها كخطبة(٤٤) .

وقد أجد ـ فيما تقدم ـ تعبيرا عن مصداقية ما خلص اليه أحد الباحثين ـ عبر فكرة ناضجة ورؤية واضحة ـ من أن تقسيم الكلام فيما تعودنا ، الى منظور ومنثور لا يغنى كثيرا من الناحية الأدبية بل يجب أن يقسم الكلام الى شعر وخطابة وكتابة(٤٥) .

**دكتور / عمر أحمد حسين صالح شرف الدين**
مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بأسيوط

---

(٤٤) الخطبة كنثر فنى ـ مرجع سابق ـ الصفحة عينها .

(٤٥) من حديث الشعر والنثر ـ مرجع سابق ـ ص ٤٠ ، ٤١ .